جدلية الصراع بين الدين والفكر والسياسة

The dialectic of conflict between religion, thought and politics

أ.د. فائزة تومان عليوي

كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

Prof. Dr. Faiza Tuman Aliwi
College of Arts/Al-Mustansiriya University
E-faeza.alshemeri@gmail.com

الملخص:

يقدم هذا البحث تصورات متشابكة عن طبيعة الصراع مابين الدين والفكرمن جهة والدين والسياسة من جهة أخرى ولمرحلة تاريخية من الزمن امتدت لقرون عدة في العصر الوسيط الإسلامي والمسيحي نتجت عنه تداعيات كثيرة وخطيرة أثرت على دور الدين كدين خالص في نشر المحبة والسلام والاستقرار بين الشعوب عبر التاريخ.

والحقيقة أن طبيعة المجتمع في بلد ما هو المحدد للأفكار وهو الذي يعطيها مضمونا معينا، وهو الذي يسمح أو لايسمح بتكونها على أرض الواقع سواء تعلقت بالدين أو الفكر أو السياسة وجدلية العلاقة القائمة بينهما. فالدين بمفهومه العام هو مجموع المعتقدات المرتكزة على مسلمات يقينية ومتضمنة في كتب بعضها مقدسة كما هو الحال مع التوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: الدين ، الفكر، السياسة، العقيدة، السلطة

Abstract :

This research presents intertwined perceptions of the nature of the conflict between religion and thought on the one hand, and religion and politics on the other hand, and for a historical period that extended for several centuries in the Islamic and Christian Middle Ages, resulting in many and serious repercussions that affected the role of religion as a pure religion in spreading love, peace, and stability among peoples throughout history.

The truth is that the nature of society in a country is what determines ideas and is what gives them acertain content, and is what allows or does not allow them to form on the ground, whether related to religion, thought, or politics and the dialectic of the relationship that exists between them. Religion, in its general sense, is the sum of beliefs based on certain axioms and contained in books, some of which are sacred, as is the case with the Torah, the Bible, and the Holy Qur'an.

Keywords: Religion, thought, politics, belief, power (authority) .

المقدمة:

أنّ الإسلام كدين، استند إلى حقائق ثابتة في النص القرآني والسنة النبوية، معتمداً على الجانب الروحي في الأخلاق والسلوك وإيمان المسلم، لكنه صار عند الإسلاميين في العصر الحديث تشبثاً بشعارات لا علاقة لها برسالة الإسلام ولا بأصوله الأولى، فاخترع هؤلاء المتطرّفون طرقاً في التفكير لا علاقة لها بالدين غير الاسم. وقد أباح الإخباريون والسلفيّون من المؤرخين المتعصبين أنواعاً من الكذب والتلفيق على الله و نبيّه ودستوره القرآني إلى درجةٍ أوصلتْهم حدّ التجاسر بلا خشية أو رادع من ضمير، فكان هؤلاء الإسلاميون الطائفيون منتحلين لصورة الإسلام، فجعلوا منازل زعمائهم ورؤسائهم لكل هذه الطوائف تتجاوز قداسة النبوة، بل إنهم زعموا أن علم هؤلاء الرؤساء يقترن بالعلم الإلهي، فكانوا يرفعون شعارات الحكم للإسلاميين وليس للإسلام فخلطوا بين الدين والسياسة خلطاً غريباً لنصرة مآربهم السياسية وليس لنصرة المسلمين وعقيدتهم !

أنّ التعصّب الأعمى قاد الأكثرين من أصحاب الجهل المركّب إلى مزاعم لا تتصل بالإيمان، فخلقوا تيّارات راديكالية تناهض ما ينبغي للمسلم الحقيقي الإيمان به بإسباغ صفاتٍ عليه تبعده عن أصوله الأولى، إلى جهة الجنوح نحو الاتجاه السياسي الإسلامي الذي أخرجه من دائرة الإيمان الذي دعا إليه النبي وخلفاؤه الأربعة قبل تأسيس الدولة الأموية.

ولأن الدين هو المرتكز الأساس فلابد لنا من أن نفرق مابين الدين كعقيدة روحية خالصة من شوائب السياسة ومابين أولئك المستثمرين في الدين ممن يطلقون على أنفسهم رجال دين وأن العلاقة مابين رجال السياسة ورجال الدين هي علاقة تاريخية تقوم على المصالح المشتركة والمتبادلة بين الطرفين ولم يجد رجال السياسة والسلطة أفضل من رجال الدين للقيام بهذا الدور، ففي القرن الرابع الميلادي اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية وقام بفرضها على الإمبراطورية فرضا، ثم بمرور السنين سجل التاريخ أحداثاً عن ذلك النزاع المرير الذي كان ينشب من حين لآخر بين رجال الدين ورجال السلطة حول من يجب أن يكون له السلطان المطلق على الناس، رجال الدين أم رجال السلطة؟[١]

١-ول ديورانت، قصة الحضارة ، ترجمة، محمد بدران، الجزء الثالث، المجلد الرابع، بيروت، بدون تاريخ، ص٣٨١-٣٨٨.

وفي القرون الوسطى مارست السلطة الدينية ذلك السلطان بالفعل أبشع ممارسة على الحكام والمحكومين، مما نشر الطغيان والفساد في الأرض باسم الله وبالتحايل على نصوص الدين، وعاشت أوروبا في ظلام دامس ما يقرب من ألف عام، وتم ذلك حين قام رجال الدين يفسرون الدين وفق مصالحهم وأطماعهم.

وعلى صعيد الصراع مابين الدين والفكر فقد كانت هناك جولات وصولات انعكست نتائجها على الحياة الفكرية والسياسية للمجتمع وأبرز مانشير اليه في هذا المجال أزمة القول بخلق القران بالقرن الرابع الهجري والإشكال الفكري الذي تسببت به بين المعتزلة والأشاعرة. وفي الغرب دخل الدين في صراع مع العلم وصار كل منهما يواجه الآخر في تناقض لا حل له افضى لما يسمى بمحاكم التفتيش في العصور الوسطى.

المبحث الأول: جدلية العلاقة بين الدين والفكر في العصر الأوربي الوسيط

المطلب الأول: الدين[1]:

انه اصطلاح من العسير تحديده تحديدا دقيقا لتباين تأويله لدى كل من البدائيين وأصحاب الديانات السماوية، ولاختلاف طبيعته من شخص لآخر، ولاتصاله بأعمق العواطف والمعتقدات التي تدفع الإنسان نحو الكمال.[2] وأن الدين أيا كان وضعيا أو سماويا إنما يعبر عن مجموع المعتقدات والأفكار التي يؤمن بها أفراد مجتمع ما ويتم التسليم بها على أنها حقائق يقينية مقدسة لايجوز للفرد أن يُجادل أو يثير الشكوك حولها. ولأن الدين يتعلق بالعواطف والمشاعر أكثر مما يتعلق بمنطق العقل وقوانينه فهو يختلف من مجتمع لآخر، بل أن ماهية الدين تختلف عند الفرد الواحد عبر مراحل حياته المختلفة ومن حيث علاقة الأنسان بما يحيط به من طبيعة ومابعد الطبيعة.

١ والدِّين بالكسر العادة والشأنُ و (دانهُ) يَدينهُ (دِينا) أذله وآستعبدهُ (فَدَانَ). وفي الحديث "الكيّسُ من دانَ نَفسَه وعمل لما بعد الموت". و (الدِّين) أيضا الجزاء والمكافأة يقال (دَانَه) يَدِينه (دِينا) أي جازاه. يقال: كما (تَدينُ تُدَان) أي كما تُجازِي تُجازى بفعلك وبحسب ماعملت. وقوله تعالى: "إنّا لَمَدِينون"أي لمجزيّون مُحاسبون ومنه (الدَّيان) في صفة الله تعالى. و (الدِّين) أيضا الطاعة تقول (دان) له يَدِينُ (دِينا) أي أطاعه ومنه (الدِّين) بكذا (دِيانَة) فهو (دَيّنٌ) و (تَدَيَّنَ) به فهو (مُتَدّين).محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، الكويت: دار الرسالة، ١٩٨٣، ص٢١٨.

٢ الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، بيروت: دار نهضة لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨٧، ص ٨٣٨.

وللدين أهمية كبيرة في حياة الناس عندما يشعر بقوة عليا يخضع لها وتؤثر في وجدانه وافكاره وسلوكه، وترتبط قيم الإنسان كلها بالدين. وتصبح المشكلات الدينية والآراء المتصلة بها على علاقة وثيقة بحياة الفرد وشعوره وضميره . وتبرز صعوبات غير مألوفة عند تصنيف الأديان. ولا يُسلم الباحثون بالنمو المطرد للدين في التاريخ، لأن لكل دين خصائصه، ولأن هناك أديان كثيرة لم يستقل بعضها عن بعض فحسب، بل كان مخالفا ومعارضا له.

وان أقدم صورة للدين تتمثل في الأساطير والاعتقاد بالأرواح والأشباح، وهناك من الصور الدينية عبر التاريخ التي تؤمن مجتمعاتها بتعدد الألهة، في حين تؤمن اخرى بأله واحد كما هو الحال في الأديان السماوية الثلاثة. وقد تعددت التسميات الدينية وفقا للمكان الذي انبثقت منه ونشأت فيه كالديانة الفرعونية والديانة البابلية والهندوسية والمجوسية والبوذية واليهودية والمسيحية ودين الإسلام.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن كل الأديان بكل مسمياتها التي وردت تُركزعلى الجاني القيمي الآخلاقي والتشريعي في حياة البشر، ولايمكن للباحث المتخصص أن يحصر عدد الأديان التي ظهرت عبرالتاريخ فهي كثيرة ومتنوعة وتختلف أهميتها من دين لآخر حسب سعة انتشاره من جهة وقوة تأثيره على الناس من جهة اخرى، بل أن بعضها شارف على الإنقراض إن لم يكن قد انقرض فعلا في حين توسع بعضها وتمدد بفعل قابليته على التأثير والتغيير كما هو الحال مع الديانتين المسيحية والإسلام.

المطلب الثاني: الفكر[1]: إن الفكر أو التفكير بعبارة أدق هو العمليات الذهنية أو الإدراكية التي تتضمن معالجة المعلومات الداخلة، لتحقيق الفهم ولحل المعضلات وكذلك للتوصل الى قرارات وأحكام. وأساس التفكير هو تكوين المفاهيم (concept)، الذي يتضمن عمليات ذهنية تنطوي على نوع من التجريد والتصنيف... وتتجلى مراحل التفكير عند مواجهة معضلة تتطلب الحل، الذي يسير فيها الفكر خطوة فخطوة ابتداءا من تشخيص المسألة وتحديد الهدف.[2]

١ فكر= (التَّفكر) التأمل والأسمُ (الفِكْر) و (الفِكرة) والمصدر (الفكر) بالفتح وبابه نصر. و (أفكَر) في الشيء و (فكّر) فيه بالتشديد و (تَفَكَّر) فيه بمعنى. ورجل (فِكِير) كثير التَفكُّر. محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مرجع سابق، ص٥٠٩.

٢ د. محمود حياوي حماش، العقل والدماغ، راجعه وقدم له د. عبدالأمير الأعسم، بغداد: منشورات بيت الحكمة، ٢٠٠٢، ص٩٠-٩١.

والفكرهو الوظيفة الطبيعية للعقل كما أن المجال الذي يخوض فيه الفكرهو الفلسفة والعلم والمعرفة (الإبتسمولوجيا)، بل أن هناك تلازم قوي بينهما جميعا، حيث لايمكن أن يكون هناك انفصال مابين العقل والفكر والمعرفة أو بين الفلسفة والعلم.

والفكر في الفلسفة انما يشير الى النشاط الذهني والعقلي من حيث تنظيم الأفكار وتحليلها وتركيبها وكل عمليات الاستنباط والإستدلال وان الفلسفة كما يقول فلاسفة اليونان هي محبة الحكمة فأنها لاتتحقق إلا من خلال استخدامها للعقل استخداما منطقيا. وقد ميز الفيلسوف اليوناني أرسطو بين الفكر والفلسفة واعتبر الفلسفة أكثر رقيا من التفكير. وأن على الإنسان أن يستخدم عقله ويزيد من وعيه في التأمل والتفكير فيما يحيط به من أجل الوصول الى الحقيقة التي ستجعل منه آمنا ومطمئنا.

وتعد فلسفة ديكارت[1] من أكثر الفلسفات التي اشارت الى وجود ترابط متلازم مابين العقل والفكر من خلال نظريته الفلسفية (الكوجيتو) والتي أثبت من خلالها إثبات وجود الذات من خلال وجود الفكر وقوله الشهير (أنا أفكر إذا أنا موجود). وهذا يعني أن الفكر الفلسفي يعتمد على العقل ومايصل لهذا العقل من معارف ومعلومات مختلفة تشكل مايسمى بالمعرفة.

المطلب الثالث: الصراع بين الفكر والدين في العصر الأوربي الوسيط

أن العصر الأوربي الوسيط امتد زمنيا لأكثر من ألف عام ابتدأت بمرحلة البواكير الأولى التي اقتصرت أو تكاد على نشر تعاليم السيد المسيح (ع) وكتابة الأناجيل الأربعة. ويمكننا القول بأنها مرحلة دينية تبشيرية بامتياز ثم تلتها مرحلة اتفق اغلب المؤرخون وفي المقدمة منهم مؤرخوا الغرب على أنها مرحلة ركود وظلام واستبداد وتسلط ديني على رقاب العباد من قبل رجال الدين واللاهوت (من آباء وقساوسة ومطارنة وبطاركة وعلى رأسهم البابا) وهؤلاء هم المتنفذون والماسكون بزمام الأمور كلها وعلى كافة الأصعدة. ثم تلتها مرحلة الثورة على الكنيسة وسلطتها المستبدة وقد سميت هذه المرحلة بعصر النهضة.

وسنسلط الضوء هنا على العصر الوسيط المظلم حيث اشتد الصراع بين قطبين رئيسين هما الدين والفكر ولا نقصد هنا الدين المسيحي بحد ذاته كدين وانما القائمين عليه والمتاجرين به والمحرفين لأصوله السمحاء وغاياته الأخلاقية النبيلة وبما ينسجم مع غاياتهم ومصالحهم الشخصية. وأيضا فيما يتعلق

١ رينيه ديكارت فيلسوف فرنسي (١٥٩٦-١٦٥٠م) يُعد رائد الفلسفة في العصر الحديث ومؤسس المذهب العقلي في الفلسفة الأوربية، وهو عالم رياضيات، ابتكر الهندسة التحليلية، ومن أشهر كتبه (مقال في المنهج).

بالفكر وطبيعته من خلاله رجاله ومفكريه من فلاسفة وعلماء حاولوا النهوض بالواقع المرير للمجتمع وتنويره وفك من قيود الهرطقة والزندقة التي كبلته طويلا.

ومن الجدير ذكره أن الفكر في العصور القديمة في الشرق كان عبارة عن دين حر، أي عقائد لاتتقيد بقيود العقل والمنطق، وكان في بلاد الأغريق عبارة عن فلسفة حرة، أي أفكار لاتتقيد بقيود العقيدة الدينية. أما في العصور الوسطة فكان الفكر هو فلسفة مقيدة بالعقيدة المسيحية من جهة ومقيدة بالقيود التي فرضها العقل والمنطق من جهة اخرى. ونتيجة لهذه القيود نشأ صراع محتدم مابين رجال اللاهوت من جهة والمفكرين الأحرار من جهة اخرى .

لقد اصطبغ الفكر الإنساني في أوربا المسيحية في ذلك الوقت بمبادىء وتعاليم الدين المسيحي، وكانت مهمته أن يؤيد بالدليل العقلي ماسلمت به النفوس بالإيمان تسليما لايقبل ريبا ولا شكاً حتى أصبح الفكر تابعا للعقيدة وأصبح العقل عونا لها.[١]

وقد صارت الكنيسة رمزا دينيا مهما خاصة بعد قدرتها في التصدي والمقاومة لكل الغزوات البربرية التي كانت على وشك أن تدك معاقل الحضارة الرومانية والحياة الفكرية بأسرها وأن تجعل من هؤلاء الغزاة السذج الحفاة ان يُسلموا ويؤمنوا بتلك القوة الروحية للدين المسيحي.[٢]

وقد نشأت البدايات الأولى للصراع بين الفكر (الفلسفة) والدين (كعقيدة) في القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح عليه السلام حيث كانت (فلسفة الشُكّاك) تعمل على التشكيك في قدرة العقل الإنساني على معرفة الحقيقة، فزعزعت بالتالي الثقة في المعرفة الفلسفية ومهدت الطريق للعودة الى جو الإيمان الديني الذي امتاز به الشرق القديم. فنجد في الإسكندرية في القرن الأول المسيحي فلسفة دينية يهودية يحمل لوائها اليهودي المعاصر للمسيح (فيلون) والذي حاول المزج بين الفلسفة اليونانية والديانة اليهودية، ذاهبا الى أن فلاسفة اليونان ماهم إلا متتلمذون على موسى والتوراة[٣].

١ د. زينب الخضيري، أثر ابن رشد في العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٩٦، ص٥٠-٨٢.

٢ إتين جلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، مصر: الناشر مكتبة مدبولي، ط ٣، ١٩٩٦، ص٢٣ومابعدها.

٣ إيميل برييه، تاريخ الفلسفة ..العصر الوسيط والنهضة، الجزء الثالث، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٣، ص١٩ ومايليها.

وفي القرن الثاني للميلاد انتشر الفكر الديني المشوب بفلسفة افلاطون من قبل مجموعة اعتنقت المسيحية الحديثة العهد التي كانت مضطهدة من قبل حكام الإمبراطورية الرومانية، فحاولوا الدفاع عنها ، وتلقبوا بالمحامين عن المسيحية، وكان أشهرهم ترتليانوس القرطاجني، والقديس يوستينوس السامري.[١] وفي القرن الثالث الميلادي حيث انتشرت المسيحية بشكل سريع، ظهر مذهب ماني الفارسي وهو يمزج الغنوصية والمسيحية بالعقيدة الزرادشتية القائلة بألهين إله للخير وإله للشر[٢].

وعند أوائل القرن الخامس الميلادي بدأت ملامح الصراع تظهر مابين العقيدة الدينية (المسيحية) ومابين الفكر الفلسفي اليوناني الذي وصل الى اوربا عن طريق الكنيسة وحدها والتي لم تعرض للناس من الفكر القديم الذي أتت به سوى مايتفق مع تعاليم النصرانية ومايعرضها كان ينبذ نبذا، وجعلت من الفكر أداة طيعة للعقيدة ومبادئها. وهكذا كان الغرض الأساسية من الفلسفة بكل مضامينها من فكر ومنطق هو تأييد العقائد الدينية وتنظيمها وللقول بأن مانزلت به العقيدة السماوية يتفق مع مبادىء العقل والفكر والمنطق ولا يتعارض معها[٣].

ومن أبرز الأسماء التي لمعت في هذه الفترة هو القديس أوغسطين الذي اعتنق المسيحية بعد أن تنقل بين مختلف الأديان الوثنية والمذاهب الفلسفية. وقد عمل جاهدا على إخضاع مبادىء العقل والفكر للإيمان الديني، وإليه يعود الفضل في جعل فلسفة افلاطون هي السائدة في العالم المسيحي حتى القرن الثالث عشرلأن فلسفة افلاطون لاتتعارض في جُلّها مع العقيدة الدينية على العكس من فلسفة أرسطو التي واجهت أكثر من قرار تحريم كنسي لمنع رواجها.[٤]

وقد أثار مرخوا الفسفة الأوربية في العصر الوسيط الكثير من الجدل بخصوص مايقدمه رجال اللاهوت المسيحي أهو فلسفة مسيحية ؟ أم فلسفة أوربية؟ وهل رجالها مفكرون أم فلاسفة أم رجال دين؟ والحقيقة كما يرى البعض منهم أن القول بوجود فكر أو فلسفة مسيحية هو قول متناقض لأن لكل من الفلسفة والدين

١ عبدالرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٦٩، ص٧-١٠.

٢ عبدالرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق.

٣ زكي نجيب محمود واحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، القاهرة: مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم، ٢٠٢٠، ص١٥ ومابعدها.

٤ عبدالرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص١٥.

ميدانهما الخاص وهما متعارضان متناقضان، فالفلسفة تقوم على العقل وحده بينما الدين يقوم في أساسه على الإيمان[١].

وعند مطلع القرن الحادي عشر وبداية الحروب الصليبية التي نقلت الكثير من كنوز المعرفة والفكر من الشرق الى الغرب وما استدعى لاحقا من فتح مراكز لترجمة علوم العرب واليونان[٢] حيث بدأ يتسرب نور الفكر الى أوربا حيث تلاقفت أيدي الشباب الأحرار كتب ارسطو وابن سينا والفارابي وابن رشد مما فتح عقولهم على منافذ فكر حر جديد وانتشرت فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية والمنطقية كالنار في الهشيم فغزت عقول الشباب ومدارس الكنائس وخاصة الشروحات التي قدمها ابن رشد لفلسفة أرسطو بل أُنشئت مدرسة بأسمه "المدرسة الرشدية اللاتينية"[٣]..

وهنا دب الرعب في قلوب رجال اللاهوت من الخطر الداهم من الفكر الجديد المتمثل بفلسفة ارسطو وشارحه العربي الفيلسوف ابن رشد، فكان لابد من المواجهة وحماية العقيدة والدفاع عنها أما بمحاولات التوفيق بين مبادئها ومبادىء العقل والمنطق وأنهما يلتقيان ولا يتعارضان ، ومثل هذه المحاولات قام بها رجال الدين في المقام الأول وفي مقدمتهم القديس توماس أكويناس ومن قبله القديس أنسلم والقديس بونافنتورا. وبالمقابل حاول رجال الفكر الأحرار كبطرس أبيلارد ومجموعة من أساتذة جامعة باريس المعجبين بفلسفة أرسطو كما شرحها ابن رشد باخضاع العقيدة الدينية لمبادىء العقل والمنطق. وظهرت أفكارعلمية جديدة سواء تلك التي تتعلق بكروية الأرض ونفي مركزيتها بالنسبة للكون وغيرها من النظريات العلمية على يد غاليليو وبرونو.[٤] وجاء فكرأرسطو ليقدم تصورات جديدة في المسائل الطبيعية والميتافيزيقية مختلفة تماما عن تلك التي قدمها رجال اللاهوت[٥].

وللأسباب التي تقدمت ضاق صدر رجال اللاهوت المسيحي بفكر أرسطو وبكل المتأثرين به فكان لابد من المواجهة وايقاف هذا المد الفكري الجارف الذي أكتسح الجامعات وعقول الشباب، خاصة وأنهم يعتقدون

١ عبدالرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ١-٣.

٢ د. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، الجزء الثاني، ٢٠٠٩، ص١٩٩.

٣ د. زينب الخضيري، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص٨٧.

٤ لتفاصيل أكثر راجع: ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام، لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر، ط ٣، ٢٠٠٩، ص٢٤-٢٧.

٥ د. زينب الخضيري، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٩٠-٩٦.

اعتقادا جازما بأن أسم أرسطو موسوما بالإلحاد وأن فلسفته تخالف تعاليم الكتاب المقدس لاسيما مايتصل منها بمسألتي قدم العالم وخلود النفس الإنسانية مما حدا بهم الى مقاومة آرائه تلك ومحاربتها واستمر الصراع بينهما لفترة طويلة من الزمن تخللها أكثر من قرار تحريم صادر من المجمع الكنسي بتوقيع البابا وموافقة الإمبراطور حيث أصبح البابا هو رأس النظام السياسي والديني في العصور الوسطى[١].

وكان أول قرار تحريم بهذا الخصوص وضعته مجموعة من رجال الدين أثناء انعقاد مجمع باريس عام ١٢١٠، وذلك لحماية العقيدة المسيحية والدفاع عنها، وحرص البابا على الحفاظ على سلامة العقيدة من كل الشوائب وهو مادفعه الى اصدار قرار التحريم هذا. ثم تلا هذا اصدار قرار تحريم أخر في باريس دون غيرها من الدوائر الفكرية في كافة انحاء اوربا وذلك عام ١٢١٥يمنع بموجبه تدريس كتب أرسطو وشارح فلسفته الفيلسوف العربي المسلم ابن رشد.

وإزاء هذه القرارات تراجع الأساتذة في جامعة باريس خوفا من بطش الكنيسة ورجالها الذين أنشأوا محاكم تفتيش تعسفية بحق المفكرين الاحرار والعلماء وكل من يأتي بجديد يخالف تعاليمهم ويضرب مصالحهم الشخصية[٢].

وما أن اشتد الصراع بين الكنيسة متمثلة برجال اللاهوت وبين طلبة الجامعة وأساتذتها أدرك البابا أن فلسفة أرسطو لم تنتشر في كلية الآداب وحدها بل اقتحم تأثيرها كلية اللاهوت نفسها وأنه لافائدة من محاولة القضاء على هذا الفكر التنويري الجديد، وأن الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفعله هو أن يقبل بفكر أرسطو وفلسفته على أن يتم تنقيتها من الشوائب الوثنية التي ألحقها بها الفيلسوف ابن رشد من خلال شروحاته عليها.

وفعلا أنبرى لهذا العمل رجال الكنيسة أنفسهم حتى غاصوا عمقا في دراسة الفلسفة الأرسطية من جهة وماقدمه الفيلسوف أبن رشد من جهة اخرى حتى صار يُلقب البعض منهم بـ (القديس الفيلسوف) وبطليعة هؤلاء القديس توماس أكويناس الذي حاول أن يوفق مابين مبادىء العقيدة الدينية ومبادىء الفلسفة

١ د. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الجزء الثاني، ١٩٥٩، ص٧-٢٥.

٢ ان الكنيسة ومؤسساتها ورجالها هم الذين احتكروا العلم والتعليم طوال الشطر الأكبر من العصور الوسطى. وليس بخاف أن الكنيسة كانت تفرض قيودا شديدة على حرية الفكر وحرية البحث العلمي حتى انتهى مصير كل من حدثته نفسه بشيء من التحرر الفكري الى اتهامه بالهرطقة. أنظر تفاصيل أكثر: د. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٢٩٢.

عموما والفلسفة الأرسطية على وجه الخصوص والتأكيد على أن قوانين العقل وأحكامه لاتتعارض مع تعاليم العقيدة المسيحية[١].

المبحث الثاني: جدلية العلاقة بين الدين والسياسية

المطلب الأول: الإختلاف والإئتلاف بين السلطة الدينية والسلطة السياسية

إن التعايش السلمي الذي ساد في أوربا في القرون الأولى لظهور المسيحية، بين السلطتين لم يدم طويلا، لينفجر الصراع بعد أن تم انتشار الديانة الجديدة، وبالتالي ازدياد أتباعها وماترتب عليه من تعاظم قوة الكنيسة وقد استطاعت الكنيسة بمرور الزمن أن تحصل على امتيازات متعددة وكونت لنفسها تنظيما اداريا، ثم نادت الكنيسة بفصل السلطة الدينية عن السياسية بما يترتب عليه من تحديد الاختصاصات وبالتالي اخضاع الفرد لأنظمة متباينة منها سياسية (للدولة) ودينية (للكنيسة)[٢].

ان المكانة العليا التي احتلتها في جميع بقاع اوربا أدى بالسلطات السياسية الى الخضوع لتعليمات الكنيسة بما تمثله من قوة القمع والارهاب، كما ان الاعتقاد الذي ظل سائدا طوال العصور الوسطى، وحتى بداية القرن السادس عشر، هو ان الكنيسة مؤسسة مقدمة لها وحدها الحق في فرض معايير الدين والاخلاق بل والتنظيم الاجتماعي والسياسي. وكان يتربع على هذا الجهاز البابا الذي يخضع له الملوك المتوجون ويقبلون أقدامه، والذي تعد أوامره وتوجيهاته مقدسة وتوصف قراراته بالعصمة[٣].

وفي هذا المقام وقبل الولوج في طبيعة العلاقة القائمة مابين السلطة الدينية متمثلة بـ (البابا) والسلطة السياسية متمثلة بـ (الإمبراطور) يمكننا القول أنها تراوحت مابين الإئتلاف تارة والإختلاف تارة اخرى ولأسباب كثيرة كادت أن تؤدي الى التصادم بينهما. وكانت الغلبة في العلاقة بينهما للإئتلاف وعلى مدى قرون من الزمن بسبب التحديات ذاتها التي واجهت كل منها.

وكانت أول مواجهة حادة بين البابا والامبراطور خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر حينما خلع البابا جريجوري السابع الامبراطور هنري الرابع امبراطور الدولة الامبراطورية المقدسة وأصدر قرار

١ حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٨، ص١١-٢١.

٢ عبدالجبار مصطفى، الفكر السياسي في العصر الوسيط والحديث، العراق: جامعة بغداد، ط١، ١٩٨٢، ص٣٨.

٣ عبدالجبار مصطفى، الفكر السياسي في العصر الوسيط والحديث، مرجع سابق، ص٣٨.

الحرمان وأحل رعيته من يمين الولاء له[١]. وفي هذا الصدد يقول ول ديورانت في موسوعته (قصة الحضارة) "أن البابا نيقولا الأول أصدر بيانا قال فيه: إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين، حكامًا كانوا أو محكومين".[٢]

ومع ذلك فأن الصراع بين سلطة الكنيسة والسلطة السياسية لم يظل قائما طوال الزمن، بل أن هناك مراحل تاريخية جعلت العلاقة بينهما علاقة إئتلاف وتوافق انسجاما مع المصالح المشتركة والمتبادلة بين الطرفين.

وفي مطلع القرن الرابع عشر وماتلاه تعاون كل منهما الى أبعد الحدود وخاصة فيما يتعلق بمحاربة الفكر التنويري الجديد الذي تصدى لمفاسد رجال الدين وشراهة رجال السياسة لجمع المال من الناس سواء عن طريق الضرائب أو صكوك الغفران التي أصدرها البابا "لاون العاشر" حيث أعتبر أن من يشتري صك الغفران سيفوزبالجنة . وكان من مآثر هذا البابا أن يوفد أحد الرهبان ويدعى (جون تيزل) لينوب عنه في جمع الأموال من الناس في المدن الأوربية يواكبه الحرس والنافخون في الأبواق (إيذانا بوصوله)، حتى اذا بلغ كنيسة المدينة واستوى الى جانب محرابها، أنصت القوم وحنوا رؤوسهم ليستمعوا إليه وهو يقول: {تعالوا أيها الناس واشتروا مني صفحي وغفراني.. بامكانكم اليوم أن تنجو أنتم وأصدقائكم من عذاب الجحيم} فيرتجف الناس رهبة وفرحا معا، وأقبل الناس عليه بالكثير من النقود يشترون الغفران من رسول البابا، وهدد الراهب من لايشتري الغفران بالحرمان، فهلع الناس، وأسرع المتخلفون الى سوق خلاص النفوس والفوز بالجنة، ومنهم من أشترى الغفران مرارا.[٣] ولا شك أن الأموال التي يجبونها من الناس كان يتم تقاسمها بين رجال السلطة الدينية ورجال السلطة السياسية.

١ ول ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٧٧.

٢ ول ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق.

٣ جان جاك شوفاليه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة محمد عرب، لبنان، ط٢، ١٩٩٨، ص٢٦٥-٢٧٧.

ومن جانب آخر أقامت الكنيسة وبالتعاون مع السلطة السياسة مايعرف بـ (محاكم التفتيش)[1] والتي تعد صفحة سوداء في التاريخ الأوربي, وذلك نتيجة لما قامت به من أعمال اتسمت, في معظمها, بالقسوة والوحشية، حيث أصدرت أحكاما بالموت حرقا ضد العلماء والمفكرين بتهمة المروق على تعاليم العقيدة المسيحية واعتبرت القول بكروية الأرض من قبيل الهرطقة والكفر واضطهدت كل القائلين بها، وحكمت على غاليليو بالحرق لقوله بحركة الأرض حول الشمس. كما حكمت على العالم الفيزياوي "برونو" بالحرق أيضا لقوله بتعدد العوالم، وشهدت العصور الوسطى حرق الكثير من العلماء والمفكرين الذين ساقتهم الكنيسة الى المحاكم[2].

ولعل طباعة الإنجيل وتداوله في أوربا أظهر مدى التناقض الفاضح بين تعاليمه وممارسات رجال الكنيسة، ما أحدث ثورة عارمة في أوساط عامة الناس، وألهب النفوس، واحتدم الصراع، فامتنع الناس عن دفع الضرائب، لا بل ذهبوا بعيدا لمصادرة أموال الكنيسة التي كانت تُجمع تحت عنوان "صكوك الغفران"، وخاصة تلك الصكوك التي أصدرها البابا "لاون" العاشر ، وتساءلت الناس هل مفاتيح الجنة بيده؟ ومما هو جدير بالذكر هنا أن ملكة فرنسا "كاترين دي ميدسيس" قد ارتكبت مذبحة سنة ١٥٢٧وكانت من أعنف المجازر بتهمة المروق عن الدين[3].

١ شهدت العصور الوسطى ثلاثة أنواع من محاكم التفتيش, الأول منها, محاكم التفتيش البابوية التي أسسها البابا جريجوري التاسع نحو عام ١٢٣١م, والتي استمرت حتى بدايات العصر الحديث, وكانت تستهدفت ملاحقة المهرطقين والسحرة والمشعوذين. و الثاني ما عرف بمحاكم التفتيش الإسبانية والتي أقرها البابا سيكستوس الرابع عام ١٤٧٨م, وتختص بملاحقة المسلمين واليهود, الذين يعيشون في إسبانيا. أما النوع الثالث فهو ما عرف بمحاكم التفتيش الرومانية والتي أسسها البابا بولس الثالث نحو عام ١٥٤٢م والتي لاحقت المفكرين والعلماء.أنظر: د. سعدون محمود الساموك ود. رشدي محمد عليان، تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، العراق: جامعة بغداد، منشورات دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٨، ص١٠٥-١٢١. وأيضا جوناثان ليونز، بيت الحكمة..كيف أسس العرب لحضارة الغرب، ترجمة، مازن جندلي، بغداد: الدار العربية ناشرون، ط٢، ٢٠١١، ص٣١-٥٠.

٢ زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص٢٩.

٣ د. سعدون محمود الساموك ود. رشدي محمد عليان، تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، بغداد: منشورات دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٨، ص١١٤.

المطلب الثاني: الحروب الصليبية وتظافر الأسباب الدينية والسياسية في قيامها

مما لاشك فيه أن هناك عوامل عديدة تظافرت جميعها في اندلاع مايسمى بـ (الحروب الصليبية)[١] والتي تُعد من أبرز الأحداث وأهمها في تاريخ العصور الوسطى لأنها استمرت لقرون من القرن الحادي عشر وحتى نهاية القرن الرابع عشر . وواضح من تسميتها بـ (الصليبية) أن الأسباب الكامنة ورائها هي دينية بامتياز حيث كان العامل الديني هو المحرك الرئيسي لها. وان حروب الاسترداد التي خاضها المسيحيون الأوربيون في الأندلس أفضت لاعتقادهم بأن الإسلام خطرر يهدد أوربا . لابد من مواجهته والتصدي له.

وقد كانت الخطبة التي ألقاها البابا (أربان الثاني) في مَجمَع كليرمونت سنة ١٠٩٥ التي حث فيها العالم المسيحي على الحرب لتحرير القدس وتخليص القبر المقدس من العرب المسلمين، ووعد المحاربين بأن تكون رحلتهم الى الشرق بمثابة غفران كامل لكل ذنوبهم[٢]. والحقيقة ان الدافع الديني هذا كان لسببين رئيسيين[٣]:

الأول: أن بني إسرائيل واليهود الذين يعتقدون أن ارض الميعاد بحدودها التوراتية التي أعطاها إياهم ربهم بعهود ومواثيق عن هدى توراتهم وانكارهم لنبوة السيد المسيح (عليه السلام) ، لذا فأن تلك العهود صارت الى المسيحيين الذين صدقوا المسيح (ع) فصارت أرض الميعاد (ومنها فلسطين) ملكاً أبديا لهم ولذريتهم حتى قيام الساعة. فالمسيحيون من كل أمة ولسان لهم وحدهم فلسطين دون اليهود ودون المسلمين كدين ودون العرب كقوم ولهم وعدهم الإلهي والحق الإلهي في تملك فلسطين.

والثاني: ان انكار اليهود للمسيح (ع) يخرجهم من الايمان الى الكفر كما يخرجهم من ابوة ابراهيم (ع)لأن النسب المسيحي هو نسب العقيدة مهما كان القوم والوطن واللغة... وتعتبر المسيحية أن الارض الموعودة قد تحققت تماما بمجيء المسيح، أي أن فلسطين تكون حقا مقدسا مشروعا للمسيحيين وحدهم، دون المسلمين واليهود. لذا كانت الحروب الصليبية المقدسة.

١ د. سعدون محمود الساموك، تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، مرجع سابق ص١٠٥-١٢١. وأيضا جوناثان ليونز، بيت الحكمة..كيف أسس العرب لحضارة الغرب، مرجع سابق، ص٣١-٥٠.

٢ الموسوعة الميسرة، الجزء الأول، دار نهضة لبنان للنشر، بيروت، ١٩٨٧، ص٧٠٩.

٣ د. سعدون محمود الساموك، مرجع سابق، ص١٠٥-١٠٩.

ونتيجة لتلك الحروب التي بلغ عددها تسعة احتك المسيحيون الأوربيون بالشرق العربي المسلم حيث تحققوا من وجود حضارة متفوقة على حضارتهم ومن شعوب أرقى منهم فاستفادوا من نظمهم وأفكارهم وعلومهم ونشطت التجارة بين الشرق والغرب. وعلى الصعيد السياسي فإن تلك الحملات الصليبية فشلت في تحقيق أهدافها نتيجة المعارك الخالدة التي خاضها المسلمون بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يهزم الصليبيين في معركة حطين وان يحرر القُدس والشام في الحملة الصليبية الثانية في القرن الثاني عشر الميلادي، وإزاء الإنتصارات المتوالية التي حققها صلاح الدين كانت الحملة الصليبية الثالثة وبقيادات ملوك أوربا أبرزهم ريتشارد قلب الأسد ولكنهم فشلوا في استعادة القدس من صلاح الدين الأيوبي. كما دون التاريخ الفضل الكبير للعثمانيين والمماليك في التصدي لحملاتهم الأخيرة وإيقافها[1].

ومنذ ذلك الحين لم يستطع الغرب المسيحي من استعادة فلسطين من أيدي المسلمين إلا بعد الحرب العالمية الأولى حين استعمر الإنكليز أرض فلسطين وما تلا ذلك من اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧.

المبحث الثالث: احتدام الصراع بين الدين والفكر والسياسة في العصر الإسلامي الوسيط

المطلب الأول: الدين والسياسة

إن الدين الإسلامي لم يكن في مصادره الأولى سياسياً، بل عقيدة صرفة تعامل المسلمون الأولون في صدر الإسلام بموجبها مع الحياة التفصيلية من منطلق الإيمان. وقد يبدو لبعض الناس أن الإيمان يمكن أن يكون سياسياً، لكنه ليس كذلك. فالإيمان تفاعلات ذاتية في النفس، مع صيرورة الضمير الأخلاقي على نحوٍ لا يقبل غير الثوابت. أمّا المتغيّرات فهي خصائص الدين، لأن الدين يتكوّن من مجموع الفرائض والطقوس التي تنظّم التفاعلات الموضوعية في انتماء الإنسان إلى آلية وجوده الطبيعي والاجتماعي كقانون ينظّم الشريعة في الحياة. من هنا، نلاحظ أن هذا القانون "لا يقتصر في واقع الأمر على الجانب النظري

١د. جوناثان ليونز، كيف أسس العرب لحضارة الغرب، ترجمة، مازن جندلي، العراق: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ٢، ٢٠١١، ص٣١-٥١.

فقط، بل ينسحب على مسارات السلوك الإسلامي أيضاً حتى يكون متفقاً مع ما يشتمل عليه الإسلام من تسامح و تراحم و محبة و سلام"[١].

انّ الإسلام كدين وقرآنه الكريم لا يتضمّن مطلقاً حُكْمَ القتل والتخريب وتدمير الغير، وإنما جعل المؤمنين سواسية والمسلمين "خَيْرُ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس"[٢]. ومن جهة أخرى نجدُ نصّاً أصيلاً محدداً هو " فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله و الرسول"[٣]، فلا تساهل مع المنحرفين عن الإيمان والشرع. وفي نص آخر " يا أيّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغْلُظْ عليهم"[٤]، فهؤلاء هم أعداء الإسلام وليسوا من المسلمين بل هم أعداء الإيمان لأنهم ينكرون الشرع الذي بشر به نبي الإسلام، ولم يتبعْهُ، فيما بعد، الكثير من المنافقين الذين غرقوا في أهواء السياسة فضيّعوا على أنفسهم فرص أن يكونوا مسلمين في الدين أو مؤمنين بالشرع، وهذا هو الفاصل بين المسلم بالإيمان والإسلامي المنافق.

وهذا يعود إلى أن مسألة المسائل في ذلك الحين هي موقف حديثي العهد بالإسلام[٥]، فنحن لا يمكن أن ننسى الذين أباحوا قتل الغير طالما إنه لم يكن منهم. ولن ننسى الانعطافات الشاذة والمنحرفة عن الإيمان و الشرع عندما نراجع التاريخ في قتل ثلاثة من خلفاء النبي هم عمر وعثمان وعلي (رض) وما تلا ذلك من أحداث فظهرتْ على السطح فِرَقٌ مشبوهة وظّفتْ الإسلام لأغراض السياسة، مثل الخوارج والسبئية والكيسانية والمرجئة والزنادقة والمانوية والقرامطة، إلخ... فأسّس هؤلاء قواعدَ الإسلام السياسي، فخطّطوا لتدمير الصورة الشفافة للإسلام بعد أن استباحوا البشر والحيوان والنبات والحجر[٦].

١اليكسي جورافسكي، الإسلام و المسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، الكويت: سلسلة عالم المعرفة (٢١٥) ، ١٩٩٦، ص٩.

٢ القرآن، سورة آل عمران، آية ١١٠.

٣ . القرآن، سورة النساء، آية ٥٩.

٤ . القرآن، سورة التوبة، آية٧٣

٥ حسن ابراهيم حسن ، ***تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي***، القاهرة، ط ٧، ج ٢، ١٩٦٤، ص ٤ .

٦ قدم المفكر المصري أحمد أمين عرض تاريخي في أكثر من كتاب له لما حدث من صراع واقتتال ديني- سياسيي بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، أنظر كتابه : يوم الإسلام، دمشق: دار التكوين للطاباعة والنشر، ٢٠٠٨.

وانقسم الإسلام السياسي إلى طوائف لا تعدّ ولا تحصى[١]، توزّعتْ في أرجاء العالم الإسلامي شرقاً من غرب الهند والأريانا بأفغانستان وبخارى وسمرقند فيما وراء النهر، وحتى الغرب من الأندلس في إسبانيا إلى تخوم فرنسا وايطاليا، وشمالاً من البلقان والأناضول وأرمينيا، وصولاً في الجنوب إلى اليمن وأواسط أفريقيا. وينبغي للباحث في تاريخ الإسلامي السياسي أن يدرك من البداية أن السعي لقولبة الإسلام على وفق منظومات الحكم السياسي أَبْعَدَ الإيمان في الإسلام عن وظيفته الروحية والأخلاقية، ومعنى هذا " أنّ الخلافة[٢] لم تدم أكثر من ثلاثين سنة، أي إلى أن قُتِل علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ثم بدأتْ الحكومة الملكية"[٣] منذ تأسيس الدولة الأموية: وراثية، سياسية، مستبدة، متعصبة[٤]، واستمرت امتداداتها في النسج على نفس المنوال في الدولة العباسية حتى سقوط بغداد سنة ١٢٥٨، وتخريبها على أيدي المغول، وكذلك كانت الخلافة في الأندلس[٥] حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، بعد حروب الاسترداد الإسبانية[٦]، فكانت الخلافة الفاطمية بعدئذٍ بمصر، والتي امتدّتْ آثارها إلى المغرب واليمن، و انتهى دورها عندما اجتثها صلاح الدين اجتثاثاً قاسياً بعد سنة ٥٦٤ هجرية[٧]، فيأتي بعد ذلك، دَوْرُ الأتراك الذين نزحوا من أواسط آسيا في التركمنستان إلى الأناضول وأسسوا دولة بني عثمان، فكانت الدولة العثمانية التي تباهتْ كثيراً و بصور

١ لا يمكننا هنا حصر الفِرَق و المذاهب و النحل التي تشعّبت من عقيدة الإسلام وتحوّلت إلى الإسلام السياسي. ويكفي أن نحيل إلى كتاب ***الملل و النحل*** للشهرستاني وكتاب ***الفصل في الملل و الأهواء و النحل*** لابن حزم وكتاب ***الفرق بين الفرق،*** للبغدادي، وغيرهم.

٢ راجع حول التفصيلات حول الخلافة : Muir. W.T., ***The Caliphate:Its Rise, Decline and Fall, Edinburegh 189***

٣ قارن : علي حسني الخربوطلي، ***الإسلام و الخلافة،*** لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٩، ص ٢٦٥.

٦ ويرى حسن إبراهيم حسن أنّ " ...الإسلام ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية ...لذلك لا ندهش إذا كره المسلمون بني أمية و غطرستهم وكبرياءهم وإثارتهم الأحقاد القديمة و نزوعهم للروح الجاهلية ، لاسيما انّ جمهور المسلمين كانوا يرون أنّ بين الأمويين رجالا كثيرين لم يعتنقوا الإسلام إلّا سعيا وراء مصالحهم الشخصية ..."***تاريخ الإسلام*** "، ج ١، ص ٣٧٨-٣٧٩.

٥ راجع حول خلافة العرب في إسبانيا : Dozy, R., ***The Moslems in Spain,*** London 1913

٦ أليكسي جورافسكي، الاسلام والمسيحية، مرجع سابق، ص ٤٢.

٧ أنظر تفاصيل أحداث الخلافة الفاطمية ، علي حسن الخربوطلي، الإسلام و الخلافة،مرجع سابق، ص ١٦٧ ومايليها.

مختلفة عن ما كان لدمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة في الدفاع عن الإسلام[١]، ولم يكونوا كذلك، لأن الإسلام السياسي هو الذي دفع بالعثمانيين لتتريك بلاد ما حول قزوين والأناضول والعرب والمسلمين ودول أوروبا التي فتحوها، فانحسرتْ منهم فيما بعد كما انحسرتْ بلاد الأندلس من العرب، والذين انحسر، أيضاً، منهم كل المشرق في أواسط آسيا، مثل ما وراء النهروتخوم خراسان الشرقية حتى بحر قزوين وبلاد السند في الهند[٢].

وبسبب هذه التفرقة السياسية خسر الإسلام أصوله الأولى التي تشكّلتْ في عصر النبي (وخلفائه الأربعة) ، فدخل الإسلام في نفق السياسة على نحوٍ تبلورتْ فيه كل القضايا التي أدّتْ إلى الاختلاف بين المسلمين، وتبعاً لذلك شكك الباحثون بولاء هؤلاء للإسلام الذي دعا إليه النبي وعمل به خلفاؤه الأربعة، وقد ذهب أبو زهرة إلى تأكيد " وجود طوائف من الناقمين على الإسلام، الذين يكيدون لأهله، ويعيشون في ظله، وكان أولئك يلبسون لباس الغيرة على الإسلام ، وقد دخلوا في الإسلام ظاهراً، وأضمروا الكفر باطناً "[٣]. كل هذا وذاك طعن في صلب العقيدة الأساس للإسلام فأبعدتْه عن الإيمان وعن الشرع[٤]، و دفعت به إلى الصراع والتطاحن والخصومات بين أصحاب الآراء المتصارعة كأحزاب تبحث عن السلطوية فقط بعيداً عن أصول الإسلام، وبلا رادعٍ، وكأن لكل شخص أو جماعة مباح، له أو لها، الهيمنة على الحكم. ومن هنا صار الصراع السياسي يلبس ثوب الدين في أرجاء العالم الإسلامي، فظهر مكرّساً في العصور المتأخرة في نزعات منتحلة يقول بها السلفيون والوهابيون والأحمديون والجهاديون والتكفيريون...إلخ، وهم جماعات انتحلتْ أسماء كثيرة استعاروها من النص القرآني للتدليل على صواب ما خلصوا إليه. وبلغتْ الجرأة عند هذه الفئات

١ وتُنْسَب إليهم الخلافة الإسلامية بالقول إنّ الخليفة العباسي المتوكل على الله بمصر تنازل عن الخلافة رسمياً للسلطان سليم الأول العثماني سنة ١٥١٧ بعد فتح مصر، في القاهرة أو القسطنطينية، أنظر ما يقوله علي حسني الخربوطلي، الإسلام و الخلافة، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

٢ تراجع التفصيلات عند حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام *السياسي، مرجع سابق*، الأجزاء ١و٢و٣و٤.

٣ محمد أحمد أبو زهرة، المذاهب الإسلامية، القاهرة: سلسلة الألف كتاب برقم ١٧٧، بدون تاريخ، ص٤٦.

٤ من الممكن تفسير الصراع السياسي هنا بأنّه الدفع باتجاه النزاعات التي ظهرتْ لم تكن طائفية فحسب، بل غير مكترثة بقرب أو بعد أي نزاع عن الإيمان و الشرع! ولننظر إلى النزاعات الشخصية، وهي كثيرة لا تُحصى، كما حدث لعبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، والأمين والمأمون، والمتوكّل وابن أبي داوود المعتزلي، والوزير حامد بن العباس والحلاج، وهكذا... نجد أنفسنا أمام تسييسٍ للدين على وفق الأهواء بتضييق أفق الإيمان من جهة اصطياد فرص المنافع والغلبة، بل قد نجد حالات لا تحتوي على معنى إلا الفعل المستنكر بأقبح الصور مثل أنّ أحد ملوك الطوائف في الأندلس زوّج ابنته لملك أراغون النصراني نكايةً بابن عمه ملك قرطبة.

أن كفّر أصحابها غيرهم من المسلمين، كما فعل الخوارج قديماً، بقصد الدفاع عن الإسلام، لكن الأمر ليس كذلك، لأنّ الإسلام لا يطابق سلوكهم ولا تصرفاتهم، فجاءت أفعالهم تناقض روح الإسلام.

وبناءً على هذا، نلاحظ أنّ التعصّب الأعمى قاد الأكثرين من أصحاب الجهل المركّب إلى مزاعم لا تتصل بالإيمان، فخلقوا تيّارات راديكالية تناهض ما ينبغي للمسلم الحقيقي الإيمان به بإسباغ صفاتٍ عليه تبعده عن أصوله الأولى، إلى جهة الجنوح نحو الاتجاه السياسي الإسلامي الذي أخرجه من دائرة الإيمان الذي دعا إليه النبي وخلفاؤه الأربعة قبل تأسيس دولة بني أمية. وهنا يظهر الدور الأكثر حرجاً، وهو أنّ الإسلام كان رسالة تستكمل رسالات سماوية أخرى، لكن الإسلام السياسي رفض أن يُعايش ديانات الآخر، فروّج لمسألة العدوانية ولأن الآخر، أيضاً، ضمر له العداء منذ البداية[1] ، حتى وإن كانوا ليسوا ضمن مظلة دول الإسلام السياسي، أو العكس.

وهنا نقرأ عند جورافسكي :" أن فتح المسلمين إسبانيا وصقلية، والحملات الصليبية إلى فلسطين، واستيلاء الصليبيين على القدس، وثأر صلاح الدين الأيّوبي وانتصاره عليهم، وطرد العرب–المسلمين من إسبانيا، وسقوط القسطنطينية، وهجوم الأتراك العثمانيين على مناطق البلقان، وتمرّد الشعوب الإغريقية والسّلافية، كل هذه المصادمات والمجابهات العنيفة أُلْبِسَتْ رداء الدين، والحرب من أجل تعزيز راية الإيمان ضدّ الكفرة (الجانب الآخر). ولهذا فإن مقولات مثل الحروب المقدسة أو الجهاد ترسّختْ في وعي ومدارك، و في لاوعي، أتباع الديانتين كأوامر إلهية لا رادّ لها، بل أصبحت فريضة على المؤمنين من كلتا العقيدتين أن يلتزموا بأدائها، والاستشهاد في سبيلها، وصولاً إلى إلغاء الطرف الكافر أو إخضاعه بشروط مُذلة في كثير من الحالات و المواقف."[2]

ولكن، هنا، ينبغي أن نلاحظ ردود الأفعال، التي جابهتْ المسلمين المؤمنين، كانتْ قد اعتمدتْ على عقيدة أنّ الإسلام كدين، استند إلى حقائق ثابتة في النص القرآني والسنة النبوية، معتمداً على الجانب الروحي في الأخلاق والسلوك وإيمان المسلم، لكنه صار عند الإسلاميين تشبثاً بشعارات لا علاقة لها برسالة الإسلام ولا بأصوله الأولى، فاخترع هؤلاء المتطرّفون طرقاً في التفكير لا علاقة لها بالدين غير الاسم. وقد أباح الإخباريون والسلفيّون من المؤرخين المتعصبين أنواعاً من الكذب والتلفيق على الله و نبيّه ودستوره

١ يراجع : جورافسكي، *الإسلام* والمسيحية، مرجع سابق، ص٣١-٤٢.

٢ . أنظر جورافسكي، المرجع السابق، ص ٣٧ .

القرآني إلى درجةٍ أوصلتْهم حدّ التجاسر بلا خشية أو رادع من ضمير. ونتيجة طبيعية لهذا النهج، أنّ الإسلام السياسي يتكوّن من فكر يخالف المذاهب الأخرى لخلق صراعات طائفية دموية فيتاجر بالدين على حساب السياسة. وبناءً على ما تقدّم، نلاحظ أن البحث في العلاقة بين الإسلام والسياسة ينبغي أن تكون على النحو التالي :

١) في أنّ الإسلام دين خالص من شوائب المدنية الاجتماعية.

٢) في أنّ أصل الإسلام ثورة على المجتمع بكل مقوّماته في الجاهلية.

٣) في أنّ الدعوة للنبوّة لم تكن تعبيراً عن دعوة طبقة خاصّة من الناس.

٤) في أنّ المسلمين الأوّلين المعاصرين لعهد الرسالة لم يسيّسوا الدين.

٥) في أنّ الإسلام السياسي صدرعن القول بأن الحكم ليس إلهياً.

٦) في أنّ الفرق بين إيمان المسلم و الحكم الإسلامي بدأ بالأمويين.

٧) في أنّ طريقة الحكم الإسلامي يخالف أصول عقيدة الإيمان والشرع.

٨) في أن الإيمان يجب أن يطابق الشريعة ويناقض السياسة و يخالفها.

٩) في أن الطائفية عند الإسلاميين ليست لأجل الإيمان بل الحكم.

١٠) في أنّ كلّ الذين خرجوا عن الإسلام هم أتباع الإسلام السياسي.

المطلب الثاني: الدين والفكر

إن الإسلام كدين تعامل مع كل القضايا الفكرية وفق منطق العقل، بل أن الله سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد أورد الكثير من الآيات الكريمة التي تحث الإنسان المؤمن على التبصر والإعتبار كقوله (فاعتبروا يا أولي الأبصار)[١] وقوله (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء)[٢] وهذا يعني أن الإسلام لم يتقاطع مع النظر العقلي. وقد اتسمت الأجواء الفكرية في العصر الإسلامي الوسيط بالانفتاح والإقبال على العلوم من مختلف الأمم وخاصة في العصر العباسي بدءا من الخليفة أبو جعفر

١ سورة الحشر، الآية (٢)

٢ سورة الأعراف، الآية (١٨٤).

المنصور وحتى حفيده الخليفة المأمون[١] الذي بلغت الحركة الفكرية والعلمية في عهده أوجها وأسس بيت الحكمة وأستقطب اليه كل العلماء والمفكرين ومن مختلف الأديان في جوه اتسم بالتعايش والألفة لنقل وترجمة علوم الأمم الأخرى وأغدق العطايا عليهم وعزز روح التنافس بينهم لاسيما بين العرب والفرس مما شجع على العمل باخلاص واتقان استمر طويلا.[٢]

ويعتبر القرن الرابع الهجري هو قمة ماوصل إليه الإنتاج المعرفي الإسلامي سواء بالعلوم او الفلسفة وبرز أسماء كثيرة كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي في المشرق العربي وابن رشد وابن خلدون في المغرب العربي. وقد تشكل الفكر الإسلامي في بداياته بما يسمى بـ (علم الكلام) تضمن العديد من المدارس الفكرية على رأسها مذهب الإعتزال والمذهب الأشعري، وعلم الكلام هو فرع أساسي من الفلسفة الإسلامية.[٣]

ولا ننسى أن الفكر الإسلامي بشقيه علم الكلام أو الفلسفة عليه أن لايتخطى حدود مبادىء الدين الحنيف ومحرماته وأن يوفق مابين مبادىء العقل (الفلسفة) ومبادىء الدين وخاصة مايتعلق منها وحدانية الله عز وجل وخلق العالم وخلود النفس. وان تغربل فلسفات الأمم الأخرى ولاسيما اليونانية منها فيقبل منها مايتوافق مع العقيدة الإسلامية وينبذ مايتعارض معها. وقد شهدت الساحة الفكرية في العصر الإسلامي الوسيط كثير من التصادم الفكري، كما لم تكن السياسة بمنأى عن هذا الصراع ولم تقف على الحياد أيضا. ويمكن لنا أن نوجز ذلك على النحو التالي:

١ معروف عن الخليفة المأمون أنه كان بصيرا بالعلم والفلسفة عاشقا لهما، حافظا للقران الكريم، له ملكات فكرية وخصال محمودة كثيرة .

٢ جوناثان ليونز، كيف أسس العرب لحضارة الغرب، مرجع سابق، ص ٩٠- ٩٧.

٣ رفض د. حسام الآلوسي وجهة النظر لدى البعض من الباحثين والمؤرخين لتاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام والتي تفصل علم الكلام عن الفلسفة الإسلامية وترى بأنه علم في الفقه والعقائد ولايمت للفلسفة بشيء. انظر كتابه، حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦، ص١٠-١٣.

أولا: التصادم الفكري العنيف بين المدرستين المعتزلة[١] والأشاعرة[٢] حيث تناقض احداهما الأخرى في التفسير والتأويل وخاصة في مسألة كلام الله جل جلاله والتي تحولت الى محنة فكرية- سياسية عُرفت تاريخيا بـ (محنة خلق القرآن)، حيث يعتقد أصحاب مذهب الإعتزال بأن كلام الله تعالى حادث مخلوق بينما رأى المذهب الأشعري أن كلام الله قديم غير مُحدث. وقد مال الخليفة المأمون الذي حدثت في عهده المحنة الى رأي المعتزلة بل وتعصب لهم واضطهد كل من يخالف رأيهم في هذه المسألة. وأصر الأشاعرة على رأيهم مما ولد تصادم بين الفريقين ، وما تعرض له الإمام أحمد بن حنبل من عذاب وتنكيل خير دليل على ذلك.

ثانيا: التوفيق بين العقل والدين، أي بين مبادىء دين الإسلام ومبادىء العقل والمنطق متمثلة بفلسفة اليونان وبمقدمتها فلسفة أرسطو الذي يعتبر قمة الهرم في الفكر البشري. وكان على فلاسفة الإسلام المعجبين بالفكر اليوناني أن لايقعوا في دائرة المحظور فيعرضوا أنفسهم لتهمة المروق عن الدين. ومع كل ماقدموه من خدمات خليلة للفكر الإسلامي إلا أنه قد تم تكفيرهم من قبل حجة الإسلام الإمام الغزالي في ثلاث مسائل فكرية جوهرية وبدعهم في ١٧ مسألة اخرى أوردها في كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) يأتي في طليعتها مسألة قدم العالم "وحجته في ذلك أن الفلاسفة الإغريق الذين كانوا يتذرعون في أبحاثهم بالعقل فقط، قد اختلفوا فيه اختلافا عظيما ولم يتفقوا فيها على رأي"[٣]. وهو بهذا قد لمح بتحريم الفلسفة واحراق كتبها ولعن أصحابها وأولهم أرسطوطاليس[٤].

ونلاحظ هنا، أن تهمة الكفر والزندقة سلاحا يشهره الحكام ورجال الدين للمفكرين والعلماء، وهو مايفسر لجوء الكثيرين منهم الى إخفاء آرائهم الفكرية والفلسفية.

١ وهي من أشهر مدارس علم الكلام في تاريخ الإسلامـ تؤمن بحرية الفرد وبالعقل كمنهج للتفكير وعلى ضوئه تُفسر كل النصوص الدينية لاقت تأييدا واسعا من قبل المأمون، ومن أشهر رجالها الجاحظ. أنظر: دومينيك سورديل، الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة علي المقلد، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ص٩٣ ومايليها.

٢ نسبة الى أبي الحسن الأشعري مؤسس مذهب علم الكلام الإسلامي الذي يعارض مذهب المعتزلة، ومن أبرز متكلميهم إمام الحرمين الجويني وابو حامد الغزالي..

٣ سليمان دنيا، الحقيقة في نظر الغزالي، القاهرة: دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧١، ص٣٦.

٤ د. فائزة الشمري، قدم العالم لأرسطوطاليس بين الغزالي وابن رشد، القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٥، ص١٢٧ومابعدها.

الخاتمة:

تقدم لدينا ان التاريخ الحافل والطويل للعصور الوسطى بشقيه المسيحي والإسلامي قد شهد احداثا سياسية دامية ومضطربة بين رجال السلطة ورجال الفكر وكان العامل الديني على الدوام هو الفاعل والمحرك الديناميكي لها. ولطالما التقت مصالح السلطة مع مصالح المتاجرين باسم الدين اولئك الذين جعلوا من انفسهم أوصياء على الدين وعلى الناس ، فتحالفوا كثيرا ضد المستنيرين من رجال الفكر الحر فاضطهدوهم وانشأوا لهم محاكم باسم الدين. واستمر الحال حتى قيام عصر النهضة والحد من سلطة الكنيسة ومن ثم تحجيمها، هذا في الغرب .أما في الشرق المسلم ظل الحلف قائم في كل مرحلة تاريخية جديدة مابين رجال الدين ورجال السلطة، بل أن رجال السلطة ينظرون لرجال الدين بأنهم الأدوات الفاعلة لقمع اي حركة احتجاج سياسي او فكري بذرائع دينية شتى أولها تهمة الالحاد والزندقة.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢- إتين جلسون (١٩٩٦) روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ط٣، مصر: الناشر مكتبة مدبولي.

٣- الموسوعة العربية الميسرة (١٩٨٧) المجلد الأول، بيروت: دار نهضة لبنان للطباعة والنشر.

٤- اليكسي جورافسكي (١٩٩٦) الإسلام و المسيحية، الكويت: سلسلة عالم المعرفة (٢١٥).

٥- إيميل برييه (١٩٨٣) تاريخ الفلسفة ..العصر الوسيط والنهضة، الجزء الثالث، ط ١، بيروت: دارالطليعة للطباعة والنشر.

٦- جان جاك شوفاليه (١٩٩٨) تاريخ الفكر السياسي، ط٢، لبنان.

٧- جوناثان ليونز(٢٠١١) كيف أسس العرب لحضارة الغرب، ط٢، بغداد: الدار العربية ناشرون.

٨- حسام الآلوسي (١٩٨٦) حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

٩- حسن ابراهيم حسن (١٩٦٤) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٢، ط٧، القاهرة.

١٠- حسن حنفي (٢٠٠٨) نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر.

١١-دومينيك سورديل (٢٠٠٧) الإسلام في القرون الوسطى، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

١٢-زكي نجيب محمود واحمد أمين (٢٠٢٠) قصة الفلسفة الحديثة، القاهرة: مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم.

١٣-زينب الخضيري (١٩٩٦) أثر ابن رشد في العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية.

١٤-سعدون محمود الساموك و رشدي محمد عليان (١٩٨٨) تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، بغداد: منشورات دار الكتب للطباعة والنشر.

١٥-سعيد عبدالفتاح عاشور(٢٠٠٩) أوربا العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، الجزء الأول و الجزء الثاني.

١٦-سليمان دنيا (١٩٧١) الحقيقة في نظر الغزالي، ط٣، القاهرة: دار المعارف بمصر.

١٧- عبدالجبار مصطفى (١٩٨٢) ط١، الفكر السياسي في العصر الوسيط والحديث، العراق: جامعة بغداد.

١٨-عبد الرحمن بدوي (١٩٦٩) فلسفة العصور الوسطى، ط٢، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

١٩-علي حسني الخربوطلي (١٩٦٩) الإسلام والخلافة، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٠-فائزة الشمري (٢٠١٥) قدم العالم لأرسطوطاليس بين الغزالي وابن رشد، ط١، القاهرة: دار التنوير للطباعة والنشر.

٢١-محمد أحمد أبو زهرة (بدون تاريخ) المذاهب الإسلامية، القاهرة: سلسلة الألف كتاب.

٢٢-محمد بن أبي بكر الرازي (١٩٨٣) مختار الصحاح، الكويت: دار الرسالة.

٢٣-محمود حياوي حماش (٢٠٠٢) العقل والدماغ، راجعه وقدم له عبدالأمير الأعسم، ط١، بغداد: منشورات بيت الحكمة.

٢٤-ولتر ستيس (٢٠٠٩) الدين والعقل الحديث، ط٣، لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر.

٢٥-ول ديورانت (بدون تاريخ) قصة الحضارة ، الجزء الثالث، المجلد الرابع، بيروت.